سلسلة محاضرات فكرية | ٤ |

أهمية البحث عن الدين

محمد باقر السيستاني

أهمّيّة البحث عن الدين

محمّد باقر السيستانيّ

محاضرة ألقيت على جمع من طلبة الجامعات
بتاريخ ٩ جمادى الآخرة ١٤٤٠ هـ
في النجف الأشرف

هذه السلسلة

مجموعةُ محاضرات أُلقيت في جمع من أساتذة وطلاب الجامعات ، وكانت في الحديث عن حقيقة الدين وحقّانيّته والحاجة إليه في ظلّ الإثارات المعاصرة ، وقد تضمّنت توضيح أنبائه الكبرى وقيمه النبيلة ، وبيان أنّ الدين ينطلق في رسم أبعاد الحياة والإنسان من منطلق عقلائيّ راشد ، وكذلك ينطلق في تشريعاته وقوانينه من منطلق فطريّ سليم ومن مقتضيات الضمير الإنسانيّ ، وتضمّنت أموراً أخرى تفصيليّة .

وكان ذلك كلّه بهدف الحثّ والإعانة على التبصّر الذي يقتضيه العقل ويوصي به الدين .

وقد يلحظ الناظر مضامين مشتركة بين أكثر من محاضرة ، لأنها جاءت في أوقات مختلفة غير متقاربة ولمجاميع عدّة ، وكان تحديد مضمونها على وفق اقتضاء محور البحث فيها ، وذلك أدّى إلى هذا الاشتراك.

ولم أشأ تغيير وضعها وجعلها في صورة كتاب واحد يتألّف من فصول ، لأنّ لوضعها هذا إيجابيّاته التي سوف يلمسها الباحث عند قراءتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين، لاسيّما (محمّد) خاتم النبيّين، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

يسرّني اللقاء بالإخوة الأعزّة للحديث حول أهمّيّة البحث عن الدين.

إن أوّل سؤال يخطر في ذهن الإنسان عند الحديث عن (الدين) والبحث عن صدقه وحقانيته، هو أنه لماذا يجب علينا البحث عن الدين أصلاً.

والجواب عن هذا السؤال على الإجمال واضح،

وذلك لأن الدين هو رسالة الله سبحانه إلى الإنسان، وهي تشتمل على أنباء خطيرة تختلف بها آفاق حياة الإنسان وأبعادها، حيث إنها ترسم لحياة الإنسان غايةً مختلفةً من جهة ما تدل عليه من وجود إله معني بالإنسان مستوجب للمعرفة والشكر والأدب معه، ويستطيع الإنسان من الاتصال به والمناجاة معه والأمل فيه، وهذا مما يعطي لحياة الإنسان بعداً روحياً جديداً مقروناً بالأمل والتسلية والإلهام، ومن جهة أخرى مهمة جداً وهي ما يتضمنه الدين من بقاء الإنسان بعد مماته بقاءً خالداً ليلقى نتيجة تبصره وسلوكه في هذه الحياة.

آيات من القرآن الكريم:

وقد أكد القرآن الكريم على أهمية البحث عن الدين وحذّر الإنسان من مغبّة الإهمال والإعراض والمكابرة لهذه الأنباء الكبرى مذكّراً بهذه المعاني بلغة رائعة:

قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ❁ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ**

إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّـهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْـمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾[٢].

ولكن بالرغم من الوضوح المتقدم من المهم توصيف هذه الأهمية توصيفاً علمياً استناداً إلى القواعد العقلائية العامة التي تمثل بنية السلوك الإنساني الراشد.

---

(١) سورة الأحقاف:٩ـ١٠. ومحل الشاهد في ذلك قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ..﴾ حيث ينبّه على أنه إذا ظهر كون الدين حقاً فماذا تصنعون حينه وقد كذّبتم به.

(٢) سورة هود:٢٥ـ٢٨. ومحل الشاهد في ذلك قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ..﴾، بالبيان المتقدم في آية الأحقاف.

وهذا التوصيف بما يشتمل عليه من بيان تلك القواعد الفطرية العامة ينفع الإنسان الراشد في خطواته وقراراته في الحياة بشكل عام ـ حتى في غير مورد التعامل مع الدين ـ لأنه يذكّره بمعالم المنهج الصائب المودع في فطرته في التعامل مع الأمور كلها، ويحفّز فيه روح العقلانية والحكمة والرشد، ليختبر خطواته ومواقفه قبل الإقدام عليها، وإن فاته مراعاتها حين الاقدام في اموره فبعدها حتى يعتبر بأخطائه وخطاياه.

ومن ثم أرجو تأمل الإخوة الحضور وغيرهم ممن يقف على هذا البحث فيه من منطلق عقلاني عام وليس لأجل اتخاذ موقف راشد في شأن الدين فحسب.

منهج البحث:

ونوقع البحث حول الموضوع في مقدمة وبحثين..

فالمقدمة: في تعريف موجز بالدين.

والبحث الأول: حول أهمية البحث المعرفي عن صدق الدين وحقانيته وفق الأساس الفطري والعقلاني العام للاهتمام المعرفي بالأشياء.

والبحث الثاني: حول ضرورة كون البحث عن الدين بحثاً موضوعياً ولائقاً في مستواه بما يليق بأهمية الدين وفق المعادلة العقلائية العامة بين أهمية الشيء ومستوى التحري اللائق به.

وهذا البحث يتضمن التذكير ببعض النقاط المعرفية المهمة والأساسية التي ينبغي الانتباه إليها في مقام البحث.

مقدمة في التعريف بالدين[١]:

إن من الضروري في الحديث عن أية فكرة لأجل تقدير أهمية البحث عنها وتقييمها من الفهم الصحيح لها، وهذا أمر بديهي وواضح.

وهذا المبدأ ينطبق بطبيعة الحال على الدين، لا سيما أن الدين رسالة من الإله إلى الإنسان، وقد لحقت هذه الرسالة نصوص أخرى ـ كان ثبوت كثير منها أو فهمها مبنياً على ضربٍ من الاجتهاد والحدس وفق الأدوات المتيسّرة ـ بعنوان التفصيل والشرح والبيان رُويت عن الرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام على أنها ألقيت في مقام بيان هذا النص وحدوده، ثم اجتهادات فكرية وفقهية تمركزت حول النص مثّلت أفهام متعددة في مفاد هذه الرسالة، وأنظار متعددة في حدود الحجة من النصوص الثانوية، ثم انطباعات وأعراف وتقاليد عامة وخاصة

---

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك محاضرة (معرفة الدين) من هذه السلسلة.

اجتمعت حول هذه الرسالة والنصوص الثانوية والاجتهادات التي تكونت من حولها، على أنها تطبيق للمبادئ والأحكام المفهومة منها، أو نحو حياطة وحماية لها، فتكوّن بذلك كله تفاصيل كثيرة ومظاهر اجتماعية عديدة للدين.

فكان من الضروري في ضوء ذلك تحديد أصول المبادئ والاتجاهات الدينية التي تمثل ثوابت الدين وخطوطه العريضة والواضحة والتي هي بمثابة الدستور الأساس التعليمي والتشريعي للدين.

ويمكن القول بإيجاز إن الدين يتألف من أنباء وتشريعات:

أما الأنباء فهي أمور ثلاثة كبرى تتعلق بالوجود والإله والإنسان، وتسمى بأصول الدين(١)، وهي:

١. وجود الإله ووحدته وصفاته الكمالية والأخلاقية، ويتضمن هذا النبأ ـ مضافاً إلى إثبات الإله ـ:

---

(١) وقد يعبر عنها بالعقيدة لوجوب الإيمان بها، لكن وجوب الإيمان نفسه من قبيل التشريعات الدينية.

أولاً: توحيده ونفي تعدد الآلهة في الوجود.

وثانياً: صفاته الذاتية الكمالية كالقدرة والعلم.

وثالثاً: الضمير الأخلاقي لله تعالى، وإليه ينتمي أصل العدالة في الدين، وهو أصل يضيفه جمع من علماء المسلمين في أصول الدين.

وهذا الأصل يمثل رؤية الدين في تفسير وجود الكون المادي وما يتمثل فيه من نظم وتقنين وجمال بوجود بعد غير مادي للوجود، وبيان حقيقة هذا البعد وخصائصه التي تمسّ الإنسان.

٢. رسالة الإله إلى الإنسان، وهي تمثل رؤية الدين في عناية الإله بالإنسان، فهذه الرسالة هي المظهر الأبرز لهذه العناية، وتشتمل هذه الرؤية على معانٍ إضافية مهمة لمشهد العلاقة بين الإله والإنسان.

٣. بقاء الإنسان بعد الممات ليعود إليها في نشأة أخرى ويلقى جزاء سلوكه في هذه الحياة، ويمثل هذا الأصل النظرة إلى الإنسان على أنه كائن ذو بعدين: بعدٌ مادي، وبعدٌ روحي ومعنوي. وهذا جزء من رؤية الدين حول الإنسان، وتشتمل هذه الرؤية على خصائص أخرى للإنسان: وهي قوة التفكير، والحكمة، والضمير

الأخلاقي، والإرادة الحرة التي بها يتحمل المرء مسؤولية أعماله وسلوكياته.

وأما التشريعات فهي تكاليف بعضها معرفية، وذلك معرفة الأنباء الثلاثة الكبرى، وتسمى بالعقيدة. وبعضها سلوكية، وهي ممارسات وتروك محددة وتسمى بالأحكام الشرعية (القانون الشرعي)، تعتمد على مبادئ الضمير الإنساني، بمعنى أن الضمير الإنساني يمثل القانون الفطري الذي جهز به الإنسان ليكون حاكماً على سلوكه وتصرفاته، فهذا الضمير هو الذي يحدد السلوك الملائم للإنسان سواء في مستوى التعامل مع الإله الخالق للكون والإنسان ، أو في المستوى الاجتماعي للإنسان في التعامل مع بني نوعه، أو في مستوى التعامل مع نفسه.

ومن ثم نجد أن الدين يركز دائماً على الدعوة إلى العمل الصالح في مقابل الفاسد، والمعروف في مقابل المنكر، والحسن في مقابل السيء، والرشد في مقابل الغي، والعدل في مقابل الظلم، والإحسان في مقابل الإساءة، ويؤكد في تفاصيل ذلك على مراعاة الحقوق الفطرية مثل حق الإنسانية والأبوة والأمومة والبنوة والقرابة والجوار والالتزام وغيرها، وكذلك يؤكد على الالتزام بسائر

المبادئ الفاضلة مثل الصدق والعفاف ونحو ذلك.

وعلى هذه المعاني تدور التشريعات التي تنظم العلاقة بين الإنسان والإنسان الآخر.

كما أنها بنفسها تنظم العلاقة بين الإنسان والإله، فللإله حق على الإنسان من جهة وشيجة الخلق والإنعام، فعلى الإنسان أن يراعي مقتضيات الأدب والتقدير والشكر مع الله سبحانه، وعلى ذلك يتفرع لزوم معرفة الإنسان للإله وإذعانه به والاهتمام بالاطلاع على رسالته إليه والاستجابة لها.

كما أن للإنسان حقاً تجاه الإله بما يمكن تشبيهه بحق الأولاد تجاه الوالدين، فالإله أيضاً يتعامل بالعدل والصدق والوفاء بالميعاد ويبذل الرعاية الملائمة للإنسان.

وأما حق الإنسان على نفسه فبأن يتعامل معها تعاملاً راشداً وفق سنن خلقتها، فلا يضار بها ويراعي القيم التي جُبل عليها ويلتزم الحكمة التي هُدي إليها، ويستجيب للغرائز التي فطر عليها مع رعاية القيم التي يلزم رعايتها. وهناك حالات يتشابه الموقف فيها من المنظور الفطري فيرد فيها التشريع وفق تحري العدالة والصلاح العام.

فهذا وصف موجز لحقيقة الدين.

وعليه يقع الكلام في البحثين المتقدمين..

١ ـ أهمية البحث المعرفي عن صدق الدين وحقانيته:

البحث الأول: حول أهمية البحث عن صدق الدين وحقانيته.

إن البحث عن صدق الدين وحقانيته هو حقاً بحث مهمة للغاية كما تقدم، لأنه بحث عن أمر خطير جداً.

وتبتني هذه الأهمية على الضابط الفطري في ملاك الاهتمام المعرفي الحكيم واللازم بالأشياء[1].

إن الإنسان يتحرك في اهتمامه الطبيعي في الاطلاع على الأشياء ومعرفتها من غرائز وسجايا في تكوينه النفسي تدعوه إلى أنشطة ملائمة معها ويترك الاهتمام بالاطلاع على أشياء أخرى لا تمثل تلك الغرائز والسجايا حوافز للبحث عنها.

ولكن البحث هنا عن الاهتمام المعرفي الحكيم واللائق الذي يتعين بذله على الإنسان ككائن مزود بالعقل والضمير والحكمة وبالإرادة الحرة والمقدرة على

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك كتاب (ضرورة المعرفة الدينية).

التحكم في سلوكه.

فهل هناك سعي معرفي يحبّذ إليه العقل؟ ولماذا؟، وما الذي ينبغي للإنسان أن يسعى إلى الاطلاع عليه والتأكد منه فهذا سؤال عام يبتني عليه الاهتمام المعرفي للإنسان الراشد.

والواقع: أنه لا شك في أنّ الإنسان وفق الانطباع العقلاني العام مزود بهدي يتيح له معرفة ملاك الاهتمام المعرفي والسلوكي، وإنما يقتصر دور مثل هذا البحث في الحقيقة على توصيف هذا الملاك كمنبّه ومذكّر للإنسان الراشد، وليس في ذلك إضافة معرفية جديدة على الباحث حقاً.

آثار البحث المعرفي:

إنّ للسعي المعرفي أثرين لا يخلو منهما، وهما:

١ ـ إصابة الواقع الذي عرفه الإنسان وترتّب آثاره الإيجابية من تحقيق صلاح أو دفع مفسدة وضرر.

وبالنظر إلى هذا الأثر يجب تحصيل المعرفة بحكم العقل لأجل إدراك هذا الواقع، متى كان تحصيل هذا الواقع أمراً حكيماً وفاضلاً. ونعبّر عن هذا المعنى بالترابط

الفطري بين الاهتمام المعرفي بالأشياء والاهتمام السلوكي بها، بمعنى أنه متى كان السلوك الخاص أمراً مهماً فإنّ المعرفة المساعدة على هذا السلوك تكون مهمة أيضاً.

وذلك في حالتين:

الأولى: أن تكون المعرفة راجحة لذاتها، كما في معرفة الإنسان بأبويه، فإن هذه المعرفة نفسها تسعد الإنسان كما أنها تسعد أبويه، فهما يحبان أن يعرفهما من أولداه، فهي بذلك أداء لحقهما وتكون عملاً حكيماً وفاضلاً.

الثانية: أن تكون المعرفة مقدمة لسلوك حكيم وفاضل، فقد يستطيع الإنسان من رعاية الحكمة والفضيلة من دون حاجة إلى بحث ومعرفة ولا مضاعفات مكلفة، كما لو احتمل التضرر من خطوة غير ضرورية وهو يستطيع من الفحص عن الضرر فيها وعدمه ولكنه يُعرض عن تلك الخطوة فيأمن الضرر، أو يحتمل انتهاك حق بالرمي العشوائي لاحتمال وجود من يمكن أن يصيبه الرمي، وهو يستطيع من الفحص عن وجوده وعدمه، لكنه يترك الرمي فيأمن انتهاك الحق، ففي مثل هذه الحالات يستطيع الإنسان الاستغناء عن البحث والتحري.

ولكن قد لا يحسن الإنسان العمل الحكيم أو الفاضل إلا بشيء من البحث والمعرفة به والاطلاع عليه، كما لو لزمه أن يزور صديقاً له وفاءً لحقه لكنه لا يعرف أين يقع بيته فيسأل عن ذلك ليعرف مكان بيته ويقوم بزيارته.

وقد يستطيع المرء من إدراك الواقع المنظور من غير كسب معرفة، وذلك من خلال التحوط والحذر، ولكن التحوط فيه يكلّفه كثيراً فيكون من الحكمة أن يحصل على المعرفة اللازمة حتى يتجنب التكلفة، وهذا هو الغالب.

وقد تساعد المعرفة على تحصيل الداعي الكافي، فهي تشجع الإنسان على العمل والالتزام، لما يكتسبه المرء بالمعرفة من اليقين والاعتقاد.

ففي مثل هذه الحالات يرجّح أو يلزم على الإنسان أن يسعى إلى تحصيل المعرفة لتساعده على إنجاز السلوك الحكيم والفاضل.

٢ ـ معذورية الإنسان تجاه فوات الواقع في حال خطأ ما انتهى إليه وعدم وصوله للواقع.

فإنّ مَن تحرّى أمراً وأخطأه كان معذوراً وفق المنطق الفطري، وكذا مَن تحرّى أمراً ولم يصل إلى نتيجة يثق بها

في شأنه لم يلزم عليه رعايته إلا أن يكون أمراً خطيراً تلزم رعايته بمجرد الاحتمال.

فهذان أثران للسعي المعرفي يترتب أحدهما لا محالة، وهما إصابة الواقع أو معذورية المرء تجاهه.

فمن تحرى عن وظيفته الفطرية أو القانونية في موضوعٍ ما فأصابها ترتب عليه إدراك مصلحة تلك الوظيفة وآثارها الإيجابية، وإذا أخطأها فاعتقد أنه ليس موظفاً بتلك الوظيفة عُدّ معذوراً لدى العقلاء ولم يُحمَّل مسؤولية خطئه بشأنها، وكذلك الحال إذا لم تثبت لديه تلك الوظيفة وإن كان محتملاً لها، إلا في حال أهمية الشيء المحتمل أهميةً توجب الاحتياط بمجرد احتماله لها.

وتلك فكرة واضحة ملموسة في حياتنا، فإذا كلفك أبوك مثلاً بأن تأتي له بحاجة معينة مثل سيارته فإن بحثت عنها وعثرت عليها وأتيته بها فقد أصبت واستوجبت الثناء والشكر بصنيعك معه، وإن بحثت عنها بجهدك ولم تجدها كنت معذوراً في عدم إتيانك بالحاجة وإن كنت قد أخطأتها، فيكون سعيك معذراً لك، وإذا شككت في سيارة رأيتها أنها لأبيك فإنك أيضاً تكون معذوراً إذ لم يكن يجب عليك أن تأتي بالسيارة

لمجرد احتمال أنها لأبيك.

إذن السعي المعرفي للإنسان ينتج إما إصابة الواقع أو المعذورية تجاهه.

وعليه: نستنتج مما تقدم: حاجة الإنسان إلى الاهتمام المعرفي بالأشياء وفق المنطق العقلي الفطري.

مستويات الاهتمام السلوكي والمعرفي اللائق بالأشياء:

قد عرفنا أنّ لزوم الاهتمام المعرفي بالأشياء يتفرع على لزوم الاهتمام السلوكي بها.

وعليه فإنّ مستوى الاهتمام المعرفي اللازم يتفرع على مستوى الاهتمام السلوكي فيكون الأهم معرفةً متفرع عن الأهم سلوكاً.

والاهتمام السلوكي بالأشياء وفق المنظور الفطري يكون على مستويين:

١ ـ مستوى إلزامي، وهو أن يقبّح العقل ترك الاهتمام بالشيء ويكون ذلك مذموماً لدى العقلاء، ومستوجباً للحظر القانوني الحكيم، ويختلف مستوى الإلزام طبعاً باختلاف الأشياء في أهميتها، فكلما كان

الشيء أهمّ كان لزوم الاهتمام به آكد.

٢ ـ ومستوى غير إلزامي، وهو أن يرجّح العقل الفطري الاهتمام بالشيء، ولكن لا يقبّح ترك الاهتمام به، فيكون الإنسان ممدوحاً عند العقلاء ببذل الاهتمام، ولكن لا يُذَم في حال تركه لذلك، وهذا المستوى أيضاً بدوره درجات، لأنه يبدأ من فوق درجة الصفر في الترجيح ـ وهي مرحلة الحياد العقلي تجاه الاهتمام بالشيء وعدمه ـ وينتهي بأول درجة من المستوى الإلزامي للاهتمام.

وهذا التصنيف لمستوى الاهتمام بديهي، فهناك أمور إذا لم نهتم بها في شأن أنفسنا أو غيرنا لأوجبت ملامةً وذماً، مثل عدم الاعتناء بالأمراض الخطيرة التي يمكن معالجتها في شروعها، أو عدم الاعتناء بإصابة الآخرين بأذى من جراء تصرفنا.

كما أن هناك أموراً يحسن الاهتمام بها، ولكن لا ذم على تركها، مثل إهمال الإنسان لما يؤدي إلى الإصابة ببعض الأمراض البسيطة المؤذية من غير حكمة، أو عدم الإحسان إلى الآخر بإنفاق ومعونة ونحو ذلك مما لا يجب عقلاً.

ويهتم القانون ـ بمعناه المعاصر ـ بخصوص المستوى

الإلزامي من الأمور والتي لا يصح إهمالها، ومن ثم لا يشتمل على مواد تتضمن الترجيح البحت.

وأما الموقف الفطري والعرف الاجتماعي والتشريع الديني فهي تتناول كلاً من المستويين، فالضمير الإنساني مثلاً يستحسن بعض الأمور استحساناً لازماً ويستحسن بعضها الآخر استحساناً غير لازم، والآداب العرفية هي لدى العرف كذلك، فهي بين راجح ولازم، كما أن الأحكام في الشرع على نوعين: إلزامية كالوجوب والتحريم، وغير إلزامية كالاستحباب والكراهة.

إذن ظهر أن للاهتمام السلوكي مستويان: لازم، وراجح، ولكلٍ منهما بطبيعة الحال مراتب متعددة.

ويتفرع على ذلك أن الاهتمام المعرفي للإنسان بالأشياء أيضاً يكون على مستويين: لازم، وراجح، ولكلٍّ منهما أيضاً مراتب عديدة.

أسس الاهتمام السلوكي والمعرفي الفطري بالأشياء:

إنّ الاهتمام السلوكي بالأشياء وفق المبادئ الفطرية

التي جُهِّز بها الإنسان يبتني على قاعدتين مترابطتين[١]:

١ ـ قاعدة أخلاقية.

٢ ـ قاعدة حِكَميّة[٢].

وهاتان القاعدتان تكونان الأساس العقلي للاهتمام المعرفي بالأشياء وفق ما تقدّم من أنّ مبنى الاهتمام المعرفي هو بعينه مبنى الاهتمام السلوكي الذي يترتب عليه.

القاعدة الأخلاقية للاهتمام السلوكي والمعرفي وتطبيقها في شأن الدين:

فالقاعدة الأولى: مراعاة حقوق الآخرين وعدم التعدي عليها وهي قاعدة قيمية بديهية وهي منبع جميع القوانين الدينية والبشرية.

ومن منطلق هذه القاعدة يصح القول إن الشيء كلما

---

(١) ووجه الارتباط بينهما أن السنن الأخلاقية هي سنن الصلاح والسعادة وفق العقلانية التي تنظر إلى السعادة بنحو جامع وشامل (ينظر ضرورة المعرفة الدينية ص:١٩).

(٢) نسبةً إلى الحكمة.

كان أكثر انتهاكاً لحق الغير كان أذم وأقبح وكان تجنبه ألزم وآكد. فالتعرض للآخرين بالأذى قبيح، وكلما كان الأذى أكثر كان الأذى أشد، فقتل الغير أو قطع بعض أعضائه أو تعذيبه قبيح جداً.

وهذه القاعدة تنطبق في شأن الدين؛ لأن الإله ذات عاقلة[1] خلق الإنسان وأنعم عليه بنعم كثيرة في نفسه وفيما حوله لكي يعرفه ويقدّر إنعامه ويشكره على ذلك، فمن القبيح من الإنسان أن يواجه الإله بإهمال معرفته أو جحوده والتنكر لمعروفه وإنعامه، كما قال تعالى: ﴿**قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ * اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ**

---

(١) إطلاق العقل في شأن الإله مجاز وتوسّع وليس على وجه الحقيقة، فالمراد به شأنية العلم والإدراك. ووجه اختيار التعبير به ـ رغم التوسع فيه ـ على التعبير بالعلم إنه لو عُبّر بالعلم لم يفد إلا العلم الفعلي دون شأنية العلم، فلاحظ.

لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّـهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١).

ورغم أن الله سبحانه لن ينقص منه شيء بكفران الإنسان لإنعامه لكن ذلك لا يوجب عدم قبح عمل الإنسان تجاه الإله، لأن معرفة الإله والإذعان به وشكره على الإجمال حق للإله، وهو حق عظيم بكونه الذي خلق الإنسان في الأصل، وبعظم النعم التي منحها للإنسان، فالتنكر له قبيح، وللإنسان أن يقرّب ذلك بنفسه بصدور مثل هذا الموقف من الولد تجاه أبيه، بأن يهمل معرفته والإذعان به وشكره على جهده في حقه، فإنه يجد ذلك أمراً قبيحاً وإن لم يكن الأب بحاجة إلى رعاية الابن لهذا الاستحقاق.

ولا فرق في قيمة الحق وأهميته بين أن يكون صاحب الحق هو الإله أو إنسان آخر، بمعنى أن كون صاحب

---

(١) سورة إبراهيم: ٣١-٣٤.

الحق هو الإله لا يلغيه ولا يخففه، لأن ثبوت الحق ومستواه تابع لمناشئ ثبوت الحق والوشائج التي تبتني عليه، ووشيجة الخلق والإنعام الكبير مستوجبة لحق مؤكد جداً.

القاعدة الحِكَميّة للاهتمام السلوكي والمعرفي بالأشياء وتطبيقها في شأن الدين:

والقاعدة الثانية: مراعاة مقتضى الحكمة، بمعنى أن يراعي الإنسان ما يحقق سعادته على وجه جامع وشامل للحال والمستقبل القريب والبعيد.

ومن منطلق هذه القاعدة يصح القول إن الشيء كلما كان أمسّ بسعادة الإنسان وشقائه كان أهم.

فزواج المرء أمر مهم، لأن الزوجين يعيشان حياتهما معاً، فلا بد من أن يسعى كل منهما سعياً أكيداً في أن يحسن اختيار الآخر، ضماناً لسعادة أكبر وأكثر وأدوم. وعمل الإنسان ومهنته أمر مهم، لأن الإنسان يزاوله ويرتزق منه طول عمره، فلا بد أن يختار مهنة مناسبة ينسجم معها ويسعد بها في حياته كلها. وتجنب المهلكات أمر مهم، لأنها تؤدي إلى فقدان المرء لحياته أو إعاقته

إعاقة دائمة يضيق بها ذرعاً.

ومستوى أهمية الشيء في سعادة الإنسان وشقائه تابع لدوره فيهما كيفاً وكماً، والمراد بالكيف مستوى الحدث السعيد أو السالب للسعادة، كما أن المراد بالكم مدة استمرار هذا الحدث وبقائه، فمن الأحداث ما تتوقى مثلاً لأنها مؤلمة ولو لفترة قليلة، كما أن منها ما تتوقى لأنها وإن كان ألمها خفيفاً ولكنها سوف تستمر لمدة طويلة جداً.

وهذه القاعدة تنطبق في شأن الدين، لان الدين أهم الأمور في حياة الإنسان، فهو أحراها بالمعرفة والتحري.

وذلك لوجهين..

الوجه الأول: أن الدين يقتضي إناطة سعادة الإنسان وشقائه في ما بعد هذه الحياة ـ وهو أمد خالد ـ بتبصره وسلوكياته في هذه الحياة، وعليه يكون لكل سلوك إنساني تأثير خالد على حياة دائمة للإنسان فتكون هذه الحياة فرصة جد وامتحان واختبار للإنسان لا لهو ومتعة واسترسال.

وهذا التأثير ليس يسيراً وفق أنباء الدين لا من حيث الكيف ولا من حيث الكم، لأن آثار الأعمال في الآخرة

أشبه بآثار المواد النافعة والضارة لجسم الإنسان، فكما أن دخول جرثومة ما في بدن الإنسان من خلال طعام غير صحي لم يتوقه الإنسان قد توجب مرضاً شديداً وطويلاً، والسلامة منها تضمن مناعة ونشاطاً مؤكداً ودائماً ومستمراً، فإن الأعمال الصالحة والأخرى الخاطئة تؤثر تأثيراً إيجابياً أو سلبياً على هذا المنوال، وما أعظم الخلود من معنى، فإن الإنسان كلما فكر فيه لم ينفد مغزاه ولم يصل إلى عمقه وكان محيّراً حقاً.

الوجه الثاني: أن الدين الحق يساعد الإنسان على السعادة[١] في هذه الحياة من جهة تأمين الجوانب الروحية والمعنوية في الإنسان، كما يساهم في تأمين مناسب لمقومات السعادة المادية.

بيان ذلك أن السعادة هي شعور الإنسان بالراحة والطمأنينة والسكينة والاستقرار.

وهي على ضربين:

---

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك كتاب (اتجاه الدين في مناحي الحياة، محور الدين والسعادة) ص:٣٧١.

١ ـ سعادة معنوية، وهي التي تحصل بالشعور بالإيفاء بالحوائج الروحية للإنسان.

٢ ـ وسعادة مادية، وهي التي تحصل بالشعور بالإيفاء بالحوائج المادية الغريزية للإنسان.

وللدين دور أساس في الإيفاء بقسم من الحوائج المعنوية كما أن له دوراً مؤكداً وراشداً في الإيفاء بقسم آخر منها وفي الإيفاء بالحوائج المادية على وجه ملائم.

أما دور الدين في الإيفاء بالحوائج المعنوية فتوضيحه: أن الحوائج المعنوية للإنسان على ضربين:

الضرب الأول: حاجة الإنسان إلى الترفع بعض الشيء عن العالم المادي وتعلقاته ليكون معتدلاً في تعلقاته المادية، وهذه حاجة روحية ملحوظة للإنسان، ويشمل هذا الجانب الروحي في الإنسان شعوراً وانجذاباً غامضاً له بكائنٍ أعلى، وهذا الشعور ربما كان هو الأساس فيما لوحظ في عمق التاريخ من توجه الإنسان إلى الإله وإيمانه بالدين وممارسته للطقوس الدينية.

كما أنه قد يكون التفسير المناسب لما تؤشر عليه المتابعات والدراسات الاجتماعية من تزايد حالات نفسية مثل القلق والكآبة ونحوهما في المجتمعات المرفهة مادياً

بالقياس إلى المجتمعات الفقيرة والمتوسطة، فهذه الحالات تشير إلى فراغ روحي يعاني منه الإنسان رغم الإيفاء بحوائجه المادية، فالدين بما يتضمنه من الإيمان بالإله المعني بالإنسان يفي بهذه الحاجة، وبذلك يوجب تأميناً لشعور الإنسان بالسعادة وملء فراغه الروحي.

الضرب الثاني: حاجة الإنسان إلى أمور معنوية، وذلك لأن الإنسان يحتاج وفق الدراسات النفسية ومعطيات علم التنمية البشرية المعاصر مضافاً إلى الأمور المادية إلى جملة من الأمور المعنوية، وهي العقلانية والأخلاق الفاضلة والتحلي بالحكمة والقناعة في الحياة والآمال النافعة والأنس، فالحاجة إلى هذه المعاني والنزوع إليها جزء من تكوين الإنسان كما هو الحال في النزوع إلى الأمور المادية.

وللدين دور أساس في الإيفاء بهذه الحوائج من وجهين..

الوجه الأول : ما يتحقق من خلال الإيمان بالله سبحانه وببقاء الإنسان بعد الممات.

وذلك لأن الإله ـ القيّم على الإنسان ـ متّصف بحسب الدين بالعقلانية والفضيلة والحكمة، فهو يقدّر

هذه المعاني في الإنسان ويبارك في الموقف العقلاني والفاضل والحكيم، كما أنه يقدّر روح القناعة والاستغناء عن المادة ـ كصفة رفيعة وراقية ـ في الإنسان، ويمثّل مصدراً لأمل الإنسان في المعونة والخير والرعاية، وهو فوق كل ذلك أنيس غير مفارق للإنسان، يحضره في جميع أحواله، ويسمع مناجاته وشكواه، ويطّلع على هواجسه وهمومه.

وأما بقاء الإنسان بعد الممات مرهوناً بتبصره وأعماله الصالحة فهو أيضاً يغذي روح العقلانية والفضيلة والحكمة في الإنسان، لأنه يتيح للإنسان التحرر من التعلقات المادية العاجلة والارتقاء إلى أفق أصفى من التأمل والتفكير والاندفاع نحو الفضيلة، لأن بقاء الإنسان بعد هذه الحياة مرهوناً بخصاله وأعماله يعني أن هذه المعاني في الإنسان تجد آثارها الإيجابية المناسبة في عالم الآخرة، وهو ما يكون تشجيعاً للاتجاه العقلاني والفاضل والحكيم في هذه الحياة.

وكذلك تشجع فكرة بقاء الإنسان بعد الموت على روح القناعة النافعة في شأن الأمور المادية في الحياة، لأن هذه الحياة لا تكون حينئذٍ مرتعاً للإنسان ليلهى ويتنعم

فيها، بل هي فرصة امتحان واختبار كقاعة الامتحان للتلاميذ، فالمهم فيها التبصر الراشد والسلوك الفاضل، وذلك ينزع بالإنسان بطبيعة الحال إلى القناعة النافعة.

ويساعد على القناعة النافعة العديد من السنن الرابطة بين الدنيا والآخرة[1].

---

(١) من قبيل ما يلي:

١ ـ ما ورد من خفة الحساب للمحرومين، والمراد بذلك أن كل من كان أقل نصيباً من نعم هذه الحياة كان أخفّ حساباً في الحياة الأخرى، فمن حُرم نعمةً في هذه الحياة إما لعجزٍ أو لرعاية حكمة أو فضيلة حُسب له ذلك في الآخرة، فلا يستوي غداً الغني والفقير، ولا القادر والعاجز، ولا الواجد والفاقد، فحساب الإنسان في الحياة الأخرى ـ حيث تقام موازين القسط ليوم القيامة ـ يجري على أساس ما أُعطي وما عمل جميعاً، وتتعين درجته على ضوء ذلك، وقد يُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ (سورة التكاثر:٨)، وعن الإمام علي (ع) قوله: ((تخففوا تلحقوا)) (نهج البلاغة ص:٦٢، الخطبة ٢١)، و((في حلالها حساب وفي حرامها عقاب)) (نهج البلاغة ص:١٠٦ الخطبة ٨٢).

٢ ـ ما ورد في الدين من محاسبة واجد النعمة عليها غداً من حيث مدى إشراك الآخرين فيها، فمن كان ثرياً ـ مثلاً ـ لوحظ عليه

وأما دور الإيمان بالبقاء بعد الموت في إيجاد الأمل النافع للإنسان، فمن جهتين:

١ ـ أن البقاء بعد الموت في حد نفسه أمل فطري للإنسان، وإن الإنسان ليجد في حال افتراضه فناءه بالممات تماماً خواءً غريباً ومؤذياً في داخله بشكلٍ لا يوصَف، وذلك أمر مشهود بالوجدان لمن تأمّله، ومن ثَمّ ينظر الإنسان إلى الأموات الذين يُعنى بهم كأبويه وأصدقائه وأهل العلم البارزين على أنهم باقون ويتمنى لهم الخير والسرور، وذلك معروف حتى في أوساط غير المؤمنين.

مدى عنايته بمن يطلع عليه من الفقراء والمعوزين والأيتام، فإن أنفق عليهم احتسب ذلك له وإن لم يفعل احتسب ذلك عليه. ومن ثم ورد عن النبي ﷺ: ((الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً)) (الكافي ج:٢ ص:١٦٤)، وفي حديث آخر: ((من لا يرحم لا يُرحم)) (تهذيب الأحكام ج:٢ ص:٣٢. صحيح البخاري ج:٧ ص:٧٥).

٣ ـ ما ورد في الدين أيضاً من أن لكل عناءٍ يعانيه المرء في هذه الحياة تخفيفاً يجده غداً.

٢ ـ أن الإيمان بالبقاء بعد المات يتيح أملاً بالسعادة في الحياة الأخرى عندما يريد الإنسان أن يثبت على عمل فاضل، أو يعيش فقراً وحرماناً في هذه الحياة، أو يعاني من ظلم لا يقدر على التخلص منه، لما دل عليه الدين من أن كل ذلك سبب للسعادة وقلة العناء في الحياة الأخرى.

فهذه بعض أدوار الإيمان بالله سبحانه والدار الآخرة في القناعة النافعة والأمل النافع.

ولهما أدوار أخرى في تجنب القناعة والآمال الضارّة التي تضرّ بفاعلية العقلانية والحكمة والأخلاق في الإنسان، أو التي تحدّ من السعادة المادية من غير ما حكمة موجبة كما سيأتي بيان ذلك.

وقد يُتوقع أن الإيمان بالله سبحانه والدار الآخرة يجعل الإنسان قابلاً بالظلم تاركاً لعمارة هذه الحياة تعويلاً على تغيير الله سبحانه للأمور وثوابه في الدار الآخرة.

وهذا انطباع خاطئ عن الدين، فالله سبحانه إنما خلق الإنسان في هذه الدنيا ليكون خليفته فيها(١)

(١) لاحظ سورة البقرة: ٣٠.

ليعمرها ويبنيها وينتفع بها[١]، وليس لكي يهملها أو يعرض عنها، كما أنه يحب المظلوم الذي يقابل الظالم ولا يخضع له حيث تقتضيه الحكمة، وقد قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٢].

وفي حركة الإمام الحسين عليه السلام مَثَل في كيفية التعامل الراجح مع الظالم.

الوجه الثاني: الخطاب الديني من خلال القرآن الكريم يشجع الإنسان على هذه الأمور بطريقة مميزة.

فتجد القرآن الكريم مليئاً بالحث على العقلانية والتفكير والتأمل والتعلّم والنظر والتبصر والتثبت ونحو ذلك من المعاني، كما أنه يحث دوماً على الأخلاق الفاضلة من خلال عناوين (المعروف، الحسنة، العمل الصالح،

---

(١) كما قال تعالى عن قول بعض الأنبياء: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾ (سورة هود:٦١).

(٢) سورة الرعد:١١.

العدل، القسط، الصدق، العفاف)، ويرغّب عن الأخلاق الذميمة من (المنكر والسيئة والظلم والجور والكذب والقول بغير علم)، وكذلك يرغّب في التحلي بالحكمة من خلال معرفة سنن الحياة والاعتبار بها والاتعاظ بموجبها حتى جعل الحكمة غايةً لإرسال الأنبياءوإلى القناعة ويبين مدى تأثيرها في سعادة الإنسان في هذه الحياة، كما أنه يدعو إلى التفاؤل والأمل وينهى عن اليأس والتشاؤم، ويدعو كذلك إلى وجوه من الأنس من قبيل الصلة بين الناس بحسب الوشائج الفطرية مثل البنوّة والأبوّة والقرابة والجوار وغير ذلك.

وينهى الدين عما يضر من وجوه القناعة والأمل والأنس.

وبذلك يتضح الدور البارز للدين في السعادة المعنوية مضافاً إلى السعادة الروحية.

وأما الدور المساعد للدين في الإيفاء بالسعادة المادية في هذه الحياة أيضاً فبيانه: أن السعادة المادية تحصل ـ كما تقدم ـ بالإيفاء بالرغبات الغريزية للإنسان على نحو معتدل دون الإفراط والتفريط، وهذا ما يشجع عليه الدين في شأن كل هذه الرغبات كالطعام والشراب

والأبوّة والأمومة والبقاء والتجمل والاشتغال بأمر نافع وموجبات العافية والصحة ورعاية الراحة والنوم والعزة الاجتماعية والاطلاع، كما قال سبحانه: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ**﴾(١)، وقال عز من قائل: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ**﴾(٢)، وقال جلت آلاؤه: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾(٤)، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية والآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) سورة النساء:٣.

(٢) سورة البقرة:٢٢٣.

(٣) سورة البقرة:١٩٥.

(٤) سورة الأعراف:٣١ـ٣٢.

ومن الخطأ أن يُتصور[١] أن الدين يوجب عناء الإنسان في هذه الحياة أو زيادة عناء الإنسان من جهة تقييده لحرية الإنسان.

وذلك لأن السبب الأهم لعناء الإنسان في هذه الحياة يرجع في جزء منه إلى أن هذه الحياة قد سُنّت على اختلاط خيرها بشرّها، ومرغوبها بمكروهها، وسعادتها بعنائها، وهناك جزء آخر، وهو أن بعض العناء لازم للمسيرة الراشدة العقلانية والحكيمة والفاضلة في هذه الحياة، فهذه المسيرة تستلزم بطبيعتها نحواً من العناء للإنسان، وإن كانت تفتح له أبواباً أخرى من السعادة على ما تقدم توصيفه، ومن المعلوم أن هذه المسيرة هي مسيرة ضرورية للإنسان سواء وُجد الدين أم لا.

نعم هناك أفهام خاطئة عن الدين تنشأ عن سوء فهم نصوصه، أو التأثر بالمزاجيات الشخصية (غير المستقيمة)، أو عدم القدرة على الفرز بين تعاليم الدين

---

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك كتاب (اتجاه الدين في مناحي الحياة، الدين والسعادة) ص:٤٤٧.

والأعراف المضيّقة، أو عدم الحكمة في ترتيب الأولويات والموازنة بين المنافع والمضارّ.

فهذه أدوار الدين في السعادة، وهي تشمل السعادة الفردية والمجتمعية، والمراد بالسعادة الفردية هي سعادة المرء المتدين نفسه، كما أن المراد بالسعادة المجتمعية سعادة سائر أفراد المجتمع.

وقد تقدم بيان دور الدين في تحقيق السعادة المعنوية والمادية.

وبذلك يتضح أن الدين يساعد على تحقق السعادة المجتمعية أيضاً، وذلك لأن هاتين السعادتين مترابطتان بشكل مشهود كما يؤكده علم التنمية البشرية والدراسات الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً، فالفرد السعيد يكون في الأسرة السعيدة والمجتمع السعيد، كما أن المجتمع السعيد يكون مؤلفاً من أفراد يعيشون السعادة.

ولو تأملت الخصال السابقة تجد أن جملةً منها خصال اجتماعية مثل القيم الاجتماعية الفاضلة والأنس الاجتماعي وغير ذلك.

على أن الدين دعا إلى إسعاد الآخرين كغاية أصلية للإنسان، ومن ثم تجد بالاطلاع على الإحصاءات أن

معظم التبرعات ووجوه الإحسان في العالم إنما تحصل بدوافع دينية.

إذاً من المهم جداً لكل إنسان راشد من المنظور العقلي الحِكَمي والأخلاقي أن يهتمّ بالدين اهتماماً سلوكياً، واهتماماً معرفياً من خلال السعي إلى البحث في شأن الدين.

المبنى الفطري للزوم البحث حول الدين ممن يشك في صدق الدين:

قد يتراءى ابتداءً أن ما تقدم ينفع في لزوم الاهتمام المعرفي بالدين ممن يثق بحقانية الدين ويرى أهميته من المنظور الأخلاقي والحِكَمي، فهذا الشخص يجب أن يهتم بالبحث عن التعاليم الدينية لأجل معرفتها وتطبيقها.

ولكن لا ينفع ذلك في لزوم البحث ممّن لا يثق بصدق الدين وحقانيته؛ لأنه لم يدرك وجود شيء مهم كي يكون ملزماً عقلاً بتحريه والبحث عنه، وإنما يحتمل ذلك فحسب، ولا قيمة لمجرد الاحتمال.

ولكن هذا الرأي خاطئ، فأهمية الشيء لا تقتضي

الاهتمام بالبحث عنه في حال إحرازه فحسب، بل كثيراً ما تقتضي الاهتمام به في حال احتماله أيضاً. وهذا الأمر على الإجمال واضح من المنظور الفطري، ومن ثم نلاحظ أن الشك في الشيء قبل البحث عنه ليس معذراً للمرء عند العقلاء تجاه الخطأ الذي يمكن أن يقع فيه جراء عدم علمه بذلك الشيء، بل عليه أن ينجز البحث ويبني على نتائجه.

وينظّم هذا الأمر قاعدتان عقلائيّتان:

قاعدة المعادلة الثلاثية الفطرية التي تنظّم رعاية الإنسان للأمور المحتملة وتطبيقها في شأن الدين:

القاعدة الأولى: معادلة ثلاثية[١] تنظم رعاية الإنسان للمصالح والحقوق والأضرار في حالات الاحتمال، وهذه المعادلة تشبه المعادلات الرياضية، وأركان المعادلة

---

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك كتاب (ضرورة المعرفة الدينية) ص:٢٨.

الثلاثة هي:

١ ـ مستوى احتمال الضرر أو الحق أو المصلحة. ويشمل الاحتمال ما يكون دون (١٠٠٪) من مستوى الإدراك الإنساني وينتهي بدرجة الصفر (٠٪).

٢ ـ مستوى الضرر أو الحق أو الصلاح المتوقع والمحتمل.

٣ ـ كلفة تجنب الضرر أو رعاية الحق أو المصلحة.

فإذا كان الاحتمال معتداً به ومستوى الضرر المحتمل مثلاً غير قليل وكلفة تجنبه غير كثيرة اختار الإنسان تجنب الضرر.

ومستوى عناصر هذه المعادلة يجبر بعضها بعضاً، بمعنى أنه كلما كان احتمال الضرر ـ مثلاً ـ أقوى اقتنع في تجنبه بمستوى أدنى من الضرر، وتقبل المرء في مقام دفعه بذل كلفة أكثر. ويصدق العكس، فكلما كان الضرر المتوقع أزيد اكتفى في تجنبه باحتمال أقل وتقبل المرء في سبيل دفعه بذل كلفة أكثر. وكلما كانت كلفة دفع الضرر المتوقع أقل اكتفى في تجنبه باحتمال أضعف ومستوى أقل.

وهذه القاعدة معروفة في الحياة الاقتصادية للتجار وغيرهم، حيث إنهم يلاحظون في الإقدام على كل خطوة

تجارية ثلاثة عناصر:

١ ـ مستوى احتمال الربح والضرر.

٢ ـ مستوى الربح الخالص المتوقع.

٣ ـ كلفة تحصيل الربح.

فإذا كان احتمال الربح معتداً به وحجم الربح المتوقع لائقاً ومستوى الكلفة والجهد الذي لا بد من بذله لتحصيل الربح مقبولاً أقدموا على تلك الخطوة، وإلا تركوها.

ومستوى عناصر هذه المعادلة عندهم أيضاً يجبر بعضها بعضاً، على نحو ما سبق في التوصيف العام، فكلما كان احتمال الربح أقوى اقتنع التاجر في الإقدام على تلك الخطوة بمستوى أدنى من الربح وقبل بذل مستوى أعلى من الكلفة لتلك الخطوة. ويصدق العكس، فكلما كان الربح المتوقع أزيد اكتفى في الإقدام على الخطوة باحتمال أقل وقبل مستوى أعلى من الكلفة. وكلما كانت كلفة تحصيل الربح المتوقع أقل اكتفى في الإقدام عليها باحتمال أضعف وربح أقل.

فهذه المعادلة هي معادلة فطرية تمثل بنية السلوك الإنساني الحكيم في جميع خطواته في الحياة، فهو يقارن في

كل مصلحة متوقعة أو ضرر متوقع أو حق محتمل بين مستوى الاحتمال ومستوى المصلحة أو الضرر أو الحق، ومستوى الكلفة التي يلزم بذلها ليحدد ما إذا كانت تلك الخطوة حكيمة أو لا.

وتنطبق هذه القاعدة في شأن الدين، فينتج أن المرء لا يُعذَر بالوقوع في الخطأ في أثر الشك في حقانية الدين من دون استكمال للبحث والتحري، لأن مستوى الضرر والصلاح والحق المتوقع على تقدير حقانية الدين مستوى كبير وخطير جداً كما سبق توضيح ذلك.

قاعدة قيمة الاحتمال قبل الفحص الفطرية وتطبيقها في شأن الدين:

القاعدة الثانية: قاعدة تأكّد قيمة الاحتمال قبل الفحص عن الشيء الذي يلزم الاهتمام به في حال اليقين به[1].

---

(١) الفرق بين هذه القاعدة والقاعدة الأولى: أنّ قيمة الاحتمال في هذه القاعدة تنمو بالنظر إلى إمكان ارتفاعه بالبحث والتحري. ولكن قيمته العقلية في القاعدة الأولى تنمو بأهمية المحتمل وقلة

وهذه أيضاً قاعدة عقلائية وجدانية نمارسها جميعاً في ضمن حياتنا وسلوكياتنا، ولكننا نحتاج إلى توصيفها.

ومؤداها أن احتمال شيءٍ ما بمستوى محدد للاحتمال قد لا يكون له قيمة إذا استقر لديك الاحتمال على ذاك المستوى بعد البحث عن المؤشرات المحتملة وعدم الاطلاع على ما يثبت الشيء، ولكن هذا المستوى من الاحتمال نفسه يستوجب الحذر والتحوّط إذا كان قبل الفحص والتحري عن المؤشرات.

تكلفة رعاية الاحتمال.

وهاتان القاعدتان يمكن أن تلتقيا في مورد واحد بأن يجب رعاية الشيء المحتمل استناداً إلى كلٍّ منهما. ويجوز أن تفترقا، كما لو كان لدينا شيء يلزم الاهتمام به في حال اليقين به، فيلزم الاهتمام به باحتماله قبل البحث استناداً إلى هذه القاعدة الثابتة، ولكن لا يلزم الاهتمام به بعد البحث وضعف الاحتمال، لعدم كون لزومه مؤكداً حتى تنطبق في شأنه القاعدة الأولى، وكذلك الحال لو كان لدينا شيء تأكدنا من البحث حوله ولم نثق بثبوته ولكنه كان خطيراً وكانت كلفة رعايته غير كثيرة، فإنه يجب الاهتمام باحتماله قبل البحث استناداً إلى القاعدة الأولى، ولكن لا تنطبق في شأنه هذه القاعدة الثانية؛ لأنّ المفروض البحث عنه.

مثلاً إذا أردت سفراً وكان احتمال خطورة السفر من ناحية معينة (٣٪) فحسب، فإن استقرأت المؤشرات على الخطورة ولم يزدد الاحتمال لم تعبأ به لضعف الاحتمال، ولا تكون ملوماً عند العقلاء لو اتفق الضرر، إذ لم يكن من شأن مثل هذا الاحتمال الضعيف أن تعتدّ به، ولكن إذا لم تتحرّ مؤشرات الخطورة وأقدمت على السفر فتضررت كنت ملوماً إذا كنت تقف على تلك المؤشرات فيما لو بحثت عنها.

وبذلك نلاحظ أن مستوىً محدد من الاحتمال بعينه لا يُعتدّ به إذا كان قد استقرّ عليه أمر الإنسان بعد البحث والتحري، ولكنه ينبغي أن يعتدّ به قبل البحث والتحري، فكأن قيمة الاحتمال قبل الفحص في مثل هذه الحالات لا تقف على مستوى الاحتمال، بل على حد قيمة ما يمكن أن يؤدي إليه البحث من العلم أو الاطمئنان.

ولأجل هذه القاعدة كان على الإنسان العاقل أن يطّلع على سنن الحياة والقوانين التشريعية التي يمكن أن تعنيه، لأن الشك قبل التعلم والتحري ليس معذراً للمرء حتى إذا كان الاحتمال ضعيفاً. وهذا أصل معروف لدى الأصوليين يعتمدون فيه على العقلانية العامة والنصوص

المؤكدة.

وبتطبيق هذه القاعدة في شأن الدين يتضح أن علينا أن نسعى إلى التحقق من حقانية الدين تحققاً كافياً ومناسباً ولا نستقر على الشك الأولي فيه، أو نكتفي ببعض الاطلاع الذي لا يحقق في المنظور الفطري والعقلاني ما يليق بأهمية الدين وخطورته، فالبحث الناقص يُعتبر بمثابة عدم البحث رأساً.

وعلى هذا اتضح أن الشاك في حقانية الدين إذا اتفق خطؤه ـ بأن كان الدين في واقع الأمر حقاً ـ لا يكون معذوراً، ويتحمل مسؤولية هذا الخطأ.

وكأن ذلك مما تشير إليه جملة من الآيات التي تحثّ الناس على الاهتمام بنبأ الرسالة بلسان: (أرأيتم إن كان هذا النبأ حقاً)، وقد ذكرنا بعض هذه الآيات في مستهلّ البحث، ومن جملتها قوله سبحانه: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾(١).

---

(١) سورة فصلت:٥٢.

٢ ـ ضرورة الاهتمام بأن يكون البحث عن الدين بحثاً موضوعياً ولائقاً بأهمية الدين:

البحث الثاني: في ضرورة الاهتمام المعرفي بأن يكون البحث عن الدين بحثاً موضوعياً ولائقاً بأهمية الدين.

لقد عرفنا فيما تقدم أن ضرورة الاهتمام المعرفي بالدين بالبحث عنه والتحري بشأنه، وذلك لأجل أن يصيب الإنسان الحقيقة الصائبة حوله وينتفع بآثارها الإيجابية، ويُعذَر على تقدير الخطأ في النتيجة التي يتوصل إليها.

ولكن ينبغي الانتباه إلى أنّ قيمة البحث المعرفي ونتائجه ـ وفق المنطق الفطري الراشد الذي زُوّد به الإنسان ـ مشروطة بشرطين:

ضرورة الاهتمام بأن يكون البحث عن الدين بحثاً موضوعياً ولائقاً بأهمية الدين:

الشرط الأول: أن يكون البحث موضوعياً، بأن ينطلق من منطلقات عقلانية ومنطقية بشكل عام.

والوجه في هذا الاشتراط: أنّ التفكير الإنساني يمكن

أن يتأثر بعوائق نفسية تمنعه من الوصول إلى الحقيقة مثل الرغبة في شيء ما أو الانفعال من موقف معين أو البغض لجهة معينة، فهذه عوامل تؤثر في تغيير منهج التفكير لدى الإنسان من التفكير الموضوعي الراشد إلى منهج التفكير المزاجي والذي يعبر عنه في علم النفس المعاصر ب(التفكير الارتغابي) وهو أمر معروف ومشهود كما نجده جميعاً في الخلافات الأسرية والاجتماعية والسياسية والفكرية، حيث نلاحظ تنكر بعض الأطراف للحقيقة في أثر منافاتها ومزاحمة آثارها لميوله ورغباته الخاصة.

وفي هذه الحالة ـ حيث ينطلق الإنسان من رغبة مسبقة أو انفعال عارض ـ فإنّه لن يقتنع بالحقيقة، بل سوف يسخّر قدرته الفكرية على المقارنة والتصنيف والتشبيه وسائر العمليات الذهنية لأجل المجادلة عن موقفه.

ولن تكون لتفكير الإنسان حينئذٍ قيمة عقلانية، بل يُلام على التأثر من مبادئ غير ملائمة للإدراك، ولا يُعذَر في ما يقع فيه من الخطأ بسبب ذلك.

وهذه الأمر مشهود وجداناً وموضع اتفاق لدى العقلاء، فكل واحد منا يجد أنه إذا أخطأ القاضي بحقه

بسبب انحيازه إلى خصمه في التقاضي فإنه يكون ظالماً له في ذلك.

إذاً إنّ قيمة المعرفة والبحث المعرفي وفق القانون الفطري تختص بما لو كان البحث جارياً على أساسٍ موضوعيّ.

ففي هذه الحالة سوف يكون الباحث موضع تقدير بمسعاه في سبيل إدراك الحقيقة، فإن أصاب فقد حصل على إيجابياتها، وإن أخطأ كان معذوراً ولم يُحمَّل مسؤوليةً في ما فاته بسبب الخطأ.

وقد نبّه القرآن الكريم على ضرورة الخوض في البحث بموضوعية وتجرّد عن الأهواء وتجنب المجادلة بالباطل، كما قال سبحانه: ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾[2]، وقال عز من قائل: ﴿**إِنْ هِيَ ـ**

(١) سورة محمد (ص): ١٤.

(٢) سورة الحج: ٨.

أي الأصنام ـ **﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّـهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْـهُدَى﴾**(١).

لزوم التثبت الكافي في البحث المعرفي وتطبيق ذلك في شأن الدين:

الشرط الثاني: في قيمة البحث المعرفي ومعذريته أن يشتمل على تثبتٍ كافٍ في الموضوع، وذلك لأن من الملحوظ أحياناً ابتلاء الإنسان في مقام الاطلاع المعرفي بالإهمال والتقاعس والاستعجال، فلا يتفحص التفحص الكافي والملائم للموضوع.

وهذا الاشتراط أيضاً يمثّل قاعدةً فطريةً وجدانيةً وعقلائيةً نجدها جميعاً، فلو أن القاضي بين الإنسان وخصمه تسرّع ولم يستقرئ شواهد صدقه اعتبره الإنسان ظالماً ورأى أن حكمه القضائي يفتقد القيمة المعرفية.

فالإهمال والتسرّع لا يعفيان الإنسان مسؤولية ما

---

(١) سورة النجم:٢٣.

وقع فيه بسببه بحسب القانون الفطري(١).

ويختلف صدق (التسرّع) في اتخاذ الرأي وفق المنطق الفطري باختلاف حساسية الموضوع الذي يبحث عنه الإنسان.

وتفصيل ذلك أنّ للبحث عن الموضوع الذي يهتم الإنسان بالاطلاع عليه مستويات متعددة أصولها ثلاثة(٢):

١ ـ فقد يبحث للتحقق من موضوعٍ ما بحثاً يسيراً،

---

(١) وقد حذّر القرآن الكريم من التقصير في أمر الدين وتعلم معالمه إذا اقتضت هجرة الإنسان من بيئة من جهة اضطهاده الديني في تلك البيئة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْـمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّـهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْـمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا**﴾ (سورة النساء:٩٧ـ٩٨).

(٢) وهذا التنويع لمستويات البحث أولي، وإلا فإنّ لكل مستوى بدوره مراتب متعددة يكون لكل واحد منها محله المناسب معه بحسب مستوى أهمية المبحوث عنه.

فإذا لم يصل إلى نتيجة أو تراءى له عدم ثبوته من خلال بعض المؤشرات اكتفى بذلك وتعامل مع الواقع المحتمل على أنه غير محقق فعلاً.

٢ ـ وقد يهتم بمزيد من التحقق منه ويبذل فيه جهداً وعناءً من حيث كيفية البحث ومقداره ومدته.

٣ ـ وقد يزيد على ذلك فيكون التحقق من الموضوع هاجساً مهيمناً على عقله وقلبه وفكره واهتمامه، وربما يسافر لأجله ويتحمل الصعاب من أجل الوصول إلى نتيجة يطمئن بها ويستوثق منها.

وعليه يقع السؤال عن الضابط الصحيح في مستوى البحث الذي يليق بالشيء الذي بُحث عنه؟

فكلنا نهتم بأشياء نريد التحقق منها في حياتنا الشخصية والأسرية والاجتماعية، فقد نحتمل ابتلاءنا بمرض اعتيادي أو خطير، وقد نحتمل أن تكون سلوكياتنا وتصرفاتنا موضع مراقبة من أحد لا يصح معه الاسترسال في التصرف لمضاعفات سلبية نحذر منها، وقد نحتمل أن يكون لبعض سلوكياتنا آثار مستقبلية على مستقبلنا في المستوى الشخصي والأسري والاجتماعي فيؤدي بنا إلى أضرار بالغة مثل الانهيار النفسي أو التفكك

الأسري أو السقوط الاجتماعي، فما هو مستوى البحث الذي يليق بنا في هذه الموارد وغيرها.

والواقع أن هذا الموضوع تحكمه قاعدة فطرية مرتكزة في ذهن الإنسان يجدها جميع العقلاء بالمراجعة إلى أنفسهم، وهي أن المستوى اللائق من البحث عن الشيء يرتبط بدرجة أهمية ذلك الشيء، فكلما كان الشيء أكثر أهمية وخطورة وتأثيراً اقتضى مزيداً من البحث عنه والاستيثاق منه، ولم يجز إهماله والإعراض عنه دون بلوغ هذا المستوى اللائق من الاهتمام بمعرفته والوقوف عليه.

فإذا قصّر الإنسان في هذا البحث تحمّل مسؤولية عمله عند العقلاء ولم يكن له حجة فيما يلحقه من مضاعفاته وآثاره.

وعليه فإن من الخطأ ما نلاحظه من بعض الناس من تفاوت اهتمامهم في البحث عن الأشياء وفق عوامل مزاجية وغريزية بحتة، فترى أن أحدهم يهتم بشيء غير مهم اهتماماً كبيراً ويصرف على البحث عنه جهداً كبيراً ووقتاً كثيراً، بينما لا يهتم بشيء آخر ذي أهمية بالنسبة إليه بالنظر إلى آثاره على مستقبله، مثل تحديد من ينبغي أن يتزوج بها أو العثور على العمل الملائم معه الذي يستطيع

الارتزاق منه.

ووفق هذه القاعدة يظهر أن من اللائق وفق المنظور العقلي الفطري أن يكون سعي الإنسان للتحقق من صدق الدين وحقانيته سعياً جاداً وحثيثاً، وذلك من جهة أهمية الدين، لأن احتمال صدق الدين وحقانيته يعني احتمال أن يكون الإنسان في المشهد الذي يعيش فيه في هذه الحياة إنما يعيش في فرصة اختبار يكون مراقباً فيه، يثبت عليه مستوى تبصره وتفاصيل سلوكه وأعماله، ويتلقى بالحسنة حسنة وبالسيئة مثلها في حياة أخرى خالدة تعظم فيها آثار الأعمال ونتائج الأفعال نظير تأثير الجرثومة الصغيرة في المرض المهلك وإنتاج البذرة الواحدة لشجرة مثمرة.

وقد وصف القرآن الكريم هذا الأمر..

قال تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَـهُم مَّثَلَ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْـمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا * وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْـجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ***

وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْـمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وقال عز من قائل: ﴿وَنَضَعُ الْـمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٣).

وعليه: ينبغي أن يكون اهتمام الإنسان بالبحث عن

---

(١) سورة الكهف:٤٥ـ٤٩.

(٢) سورة يونس:٦١.

(٣) سورة الأنبياء:٤٧.

الدين الحق الهاجس الأول له في هذه الحياة، ويكون عنايته بالتوصل فيه إلى نتيجة يتحمل مسؤولية صوابها وخطئها عناية جادة وكبيرة تليق بأهمية مضمون الدين وأنبائه الكبرى عن الله سبحانه والدار الآخرة، لأنه في حال عدم بذل الاهتمام اللائق يكون مقصّراً، ويتحمل مسؤولية أعماله في حال تبيّن خطأه مسؤولية تامة.

من مظاهر التقصير في التحقق في شأن الدين:

إننا لنجد مظاهر عديدة للتقصير في التحقق من أمر الدين: إما من جهة التأثر بالأهواء والانفعالات العاجلة، أو من جهة الإهمال والتسرع في الاستنتاج.

ومن جملة تلك المظاهر ما يلي:

١ ـ أن غالب ما أثير للتشكيك في الدين ينطلق من أسئلة بسيطة ذات حلول سهلة للغاية في شأن الدين يتضح جوابها بشيء من التأمل الجاد والتحري، وليس من المعقول اكتفاء المرء بها والوقوف عندها في شأن البتّ

في شأن صدق الدين وحقانيته، وقد تحققتُ[١] من هذا الأمر بشكل مباشر من خلال استقراء الإثارات الشائعة في مواقعها المعروفة والتأمل فيها، فقد وجدت أنّ هذه الإثارات غالباً لا تمثل مستوىً مقبولاً من الطرح والتفكير.

ومن ثم فإنه يبدو لأي متابع أنه لولا بعض العوامل الثانوية ـ من قبيل الانفعال من مظاهر التشدد في الخطاب والسلوك لبعض مَن تصدّر المشهد الإعلامي المعاصر والإخفاق السياسي لبعض الساسة الذين يتحدثون بالخطاب الديني، ورغبات تحول دونها القيم الدينية الحامية للقيم الإنسانية ـ لم تكن لتوجد هذه الإثارات أصلاً.

٢ ـ أن من الممكن أن يقارن الإنسان بين الجهد الذي يبذله في البحث عن أي شأن آخر من الشؤون التي يراها مهمة أو خطيرة مما يكون له دور في حياته كأمر زواجه أو تخرجه من الجامعة، أو نجاحه في الدراسة أو وظيفته أو

(١) يلاحظ سلسلة منهج التثبت في شأن الدين.

مكانته الاجتماعية أو استقراره الأسري ونحو ذلك، وبين الجهد الذي بذله في شأن التبصر في أمر الدين.

فهذه المقارنة تتيح للإنسان الانتباه إلى مدى كفاية البحث المعرفي الذي بذله حول الدين ومدى ملاءمته مع خطورة الدين.

وصف بعض النكات العقلانية المهمة في مقام البحث والتحري وتطبيقها في شأن البحث عن الدين:

إنّ هناك نكات عقلانية ميسّرة يراعيها العقلاء بفطرتهم فيما يهتمون من أمورهم بالبحث والتحري عنه على الوجه الملائم، نذكّر هنا باثنتين من أهمها:

١ ـ أن كثيراً من المواضيع تبدو للإنسان مظلمة ومحيرة ومحلاً للشك والترديد من جهة البعد عنها، فإذا اقترب منها أمكن أن يبصر فيها نوراً يُشخّص من خلاله الحقيقة كما يجد ذلك كل واحد منا بالنسبة إلى الحقل العلمي الذي يطلع عليه وسائر الحقول الأخرى، فهو يستوضح كثيراً من الأمور في الحقل الذي يطلع عليه بينما يجد زملاءه ينظرون إليها بغموض وترديد من جهة عدم

القرب منه، ويكون الأمر بالعكس في سائر الحقول التي لا يطلع عليها.

وهذا أمر عام له تطبيقات ميسرة في حياة كل واحد منا، فقد تجد أن بعض الناس يجد غموضاً وترديداً حول الثقة ببعض الأشخاص الذين نعرفهم عن قرب من جهة مسموعات مختلفة عنه ولكننا نستوضح كون هذا الشخص موثوقاً من جهة الاطلاع القريب على أحواله، من جهة علاقة معه برحم أو زوجية أو صداقة أو غير ذلك.

وتصدق هذه الفكرة في شأن الدين.

فالمرء إذا نظر إلى الدين من بعيد بالنظر إلى مجموع ما يُنسب له من تعاليم وتشريعات ومجموع ما يُحسب عليه من تراث وتاريخ، ومجموع ما أُلصق به من اجتهادات وأعراف وعادات وتقاليد اظلمّ عليه الأمر، فإذا أُبهم عليه شيء من هذه المجموعة عمّمه على الباقي، وربما أغراه ذلك بالتوسع في الاعتماد على ما يتراءى له في النقد والمناقشة من غير إنضاجه بالمقدار الكافي.

ولكنه عندما يقترب من الدين يتأتى له تصنيف التعاليم والمعلومات وفق مراتبها وتقدير كل شيء بقدره

فيفرز بين الأمور اليقينية وبين الأمور الاجتهادية بحسب مراتبها وبين الأمور الخاطئة أو التي لا حجة عليها ويدرك من خلال ذلك حجم التأكيد في الخطاب الديني (من خلال القرآن الكريم) على تأصيل اعتماد العقلانية والتفكير والضمير الأخلاقي مما يعطي اشتراطات أساسية وثابتة لكل ما يمكن أن يكون جزءاً من الدين وينبّه على ملابسات النصوص والحوادث وظروفها.

كما يتنبّه المرء في حال اطلاعه على الدين عن قرب أن المعايير والمعلومات التي استند إليها في نقد الدين بدورها تنقسم إلى أمور يقينية، وأخرى اجتهادية، بمراتبها، وثالثة خاطئة إذ لا حجة عليها، فأدى التسرع إلى الاعتماد على جميعها في مستوى واحد.

وبذلك يمكن أن يحصل المرء على صورة حقيقية أو قريبة من الحقيقة في شأن الدين وينقشع الظلام المطبق الذي كان يجده أولاً.

فالحال في الدين يشبه أحياناً الحال في كثير من الشخصيات الجدلية في التاريخ والاجتماع، حيث يوجد حولهم مجموعة كبيرة من المعلومات والوثائق والمؤشرات والادعاءات، فلا يسع المرء أن يثق بشيء حولها إلا إذا

اقترب منها.

وعليه فلا يصح على المرء أن يحكم في أمر الدين من بُعد، بل عليه أن يقترب من الموضوع حتى يكون قريباً منه، ليستطيع أن يحدد مستوى المؤشرات القائمة عليه.

٢ ـ أن المرء قد يجد في شأن فكرةٍ ما مؤشرات واضحة وساطعة تثبت تلك الفكرة ونقاط غامضة ومبهمة قد توحي بخلاف تلك الفكرة ولكن ليست واضحة في ذلك، وفي هذه الحالة يجب من المنطلق العقلي الراشد الأخذ بالنقاط الواضحة والساطعة المثبتة للفكرة، ولا يصح التوقف في الفكرة لأجل الجهات الغامضة، لأن الشيء الغامض لن يعارض الدليل الواضح والمحكم.

ونعبر عن هذه القاعدة بقاعدة الموازنة بين المؤشرات والمعلومات أو قاعدة تحكيم المحكم على المتشابه ـ وفق لغة النصوص الدينية ـ[1].

---

(١) يلاحظ في تفصيل ذلك كتاب (القواعد العامة للمعرفة الإنسانية والدينية، القاعدة:٤) ص:٩١.

والمراد بها أنه لا يصح إيقاع المعارضة دائماً بين المؤشرات المتعاكسة التي تقوم في موضوع واحد، بل لا بد من غربلتها والانتباه إلى مستوى كل واحد للأخذ بالمؤشرات الواضحة والبيّنة دون ما سواها.

وهذه قاعدة فكرية عقلائية تطبق في العلوم كلها، فلن يتوقف الباحثون في العلم في الفكرة بعد قيام دلائل واضحة عليها لأجل نقاط ملتبسة بشأنها، كما أننا نطبق ذلك في حياتنا الشخصية، فإذا علمنا من صديق صفة مثل عدم الطمع أو الأنانية ووجدنا له موقفاً ملتبساً أحسنّا الظن به واحتملنا لموقفه الملتبس مخرجاً ولم نجعله تحدياً لما نعهده منه من الصفات المذكورة من خلال مواقف مؤكدة شهدناها.

ويتفرع على ذلك نكتة منهجية، وهي أن الباحث حول موضوعٍ ما إنما يسعى إلى تحري النقاط الواضحة والساطعة في شأنه، فإذا حصل ما يوجب الثقة به منها لم يهتم بالاطلاع على الجوانب الملتبسة والغامضة التي يحتمل لها مخرجاً، كيف وهذه الجهات قد لا تنتهي أصلاً، فإن كافة المواضيع التي يتأملها الإنسان ـ فيما عدا العمليات الرياضية والهندسية ـ يجد تجاهها بعض

التساؤلات والإبهامات التي تتراءى للباحث بدواً، ولكنه لا يهتم بها إذا اطلع على مؤشرات واضحة في شأنها، فلو وجد الإنسان في شأن شخصية معينة دلائل واضحة على سلامة موقفه تجاه أمرٍ ما من جهة اطلاع قريب أو معاشرة مؤكدة لم يأبه بنقاط التساؤل والإبهام التي يمكن أن تنشأ من سلوكيات متشابهة منه أو شائعات متداولة حوله.

وهذه القاعدة يمكن أن تنطبق في شأن الدين، بأن توجد بجنب المؤشرات الواضحة على صدق الدين وحقانيته أمور ونصوص متشابهة وغامضة، فلا يصح أن تجعل هذه الأمور تحدياً لصدق الدين وحقانيته.

والمنهج الصحيح في البحث عن صدق الدين وحقانيته هو تلمّس النقاط الواضحة والساطعة دون تتبّع النقاط المتشابهة ـ والتي تزداد بمرور الزمان ـ ثم التوقف عندها، أو تعطيل الاستنتاج ريثما يتم إحصاؤها وتحديد المخرج الملائم فيها، فإن ذلك لا ينتهي أبداً.

إن التأصيل الصحيح للمسائل وإرساء الأسلوب السليم للتفكير فيها لهو شرط أساس في إيجاد بحث موضوعي ينتهي إلى نتائج صلبة وصائبة وراشدة بعيداً

عن الجدل اللاغي والعقيم.

ولنختم هذا البحث بآيات قرآنية مناسبة ومذكّرة:

قال عز من قائل: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾(١).

وقال جلت آلاؤه: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾(٢).

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الجاثية:٣١ـ٣٢. ومحل الشاهد في ذلك التحذير عن حالة الإهمال والإعراض في شأن الدين بدعوى أننا لا نعلم بحقانيته ولا نستيقن بها، وإنما نظن به ظناً.

(٢) سورة الشورى:٤٧ـ٤٨. ومحل الشاهد في ذلك ذم الإعراض والتحذير منه.

فهرس الموضوعات